٩٨ -- الانسان والطبيعة

بين قانون الخضوع لقوانين الطبيعة وقانون تعديلها سرّ الحياة . وبينهما حيرة العلماء . وبينهما اختلاف أنظار الفلاسفة . لقد نظر قوم الى الحياة من جانب القانون الأول وحده فقالوا بالجبر وأنّ الانسان كالريشة في الهواء وقالوا بالقضاء والقدر . ونظر قوم الى القانون الثاني وحده فقالوا بحريّة الارادة وقالوا بسلطة الانسان وأنكروا الحظّ وأنكروا القضاء والقدر . وتفلسف قوم فنظروا الى القانونين معاً . وقالوا إن الطبيعة التي تخضع بقوانينها الانسان قد منحت الانسان نفسه قدرة على محاربتها والوقوف أمامها لمقاومتها .

والحقّ أن لا حرب ولا خصام ، وأنّ حياة الانسان نفسها ضرب من ضروب القوانين الطبيعية وأنّ هناك التئاماً بين القوانين الطبيعيّة والانسان وأنّ هناك « وحدة في الوجود » لا أثنينية في القانون ، وأنّ الانسان لا يحارب الطبيعة ولكن يندمج فيها ويعيش في وفاق معها . وكلّما رقي ، فهم أسرارها وقوانينها . واذا فهمها لم يعدّلها ، ولكنّه يعدّل نفسه ليوافقها وليكوّن هو وهي نغمات متجانسة لا نشوز فيها ، وأنّ النزاع والخصومة بين الانسان وقوانين الطبيعة سببه الجهل بها . فيكون شأنه كالطفل يلعب بالنار والغرّ يتجرّع السّمّ يظنّه سكّراً . والمثل الأعلى للانسان انسان عرف كل قوانين الطبيعة وكل قوانين نفسه ووفّق بينهما ، كالآناء يوفّق بينه وبين غطائه والسّيف يختار له ما يوافق من غمده . واذن فلا جبر ولا اختيار ولا خصومة ولا نزاع ، ولكن أين هو ذلك الانسان ؟

أحمد أمين